ذاكرة الأجيال

إن تاريخ الأمة فى بعض صوره المتحركة يتمثل فى الإستدعاء الحي للسيرة الذاتية من أرشيف ذاكرة الأجيال المعاصرة.. وبقدر الإهتمام بهذا التاريخ و صدق التسجيل لأحداث السيرة و دقة تنظيم الأرشيف تتجلى قوة الذاكرة و تبقى حقائق التاريخ نابضة فى و جدان الأمة. و فسيولوجيا هذه الذاكرة البشرية هي الأصل فى صناعة الكمبيوتر الذى أصبح ذاكرة العصر اليوم. و قد أطلقوا عليه فى البداية "العقل الاكتروني"، و عندما فطنوا الى عجزه فى مجاراة قدرة و نعمة العقل الذى هو من صنع الخالق تواضعوا على تعريفه بالحاسب الآلى"، بدليل ان كفاءته رهينة بدقة فن التخزين فيه أو برمجته و التى تحتاج الى التدريب و عبء التشغيل.

ولذلك نجد فى حالات القلق النفسى عند الكبار أو الصغار أن الشكوى من ضعف الذاكرة هو فى الأصل نتاج خطا البرمجة و سوء التخزين نتيجة ضعف التركيز و تشتت الإنتباه وبالتالى عدم ترابط مراحل التسجيل. فالإختزان ثم الإسترجاع إما فى هيئة تعرف أو شكل استدعاء و لذلك نرى أن ضعف الذاكرة فى الكبار "القلق أو الخرف" أم الصغار "القلق" يعود إلى تشويش فى الذاكرة قصيرة المدى و التى ترصد الأحداث القريبة و المتعلقة بالنشاط اليومى فى الحياة إلى حد كبير.

أما الذاكرة طويلة المدى فهي آخر المطاف في اضطراب الذاكرة فى الكبار بوجه خاص و الصغار بوجه عام ولذلك يبدأ صراع الكبار مع مشكلة الذاكرة قصيرة المدى فى بداية الشيخوخة و ربما يكون هذا جزأ من تضييق دائرة اهتماماتهم وقلة مجاراتهم للجديد حفاظا على المساحة المتبقية من الكمبيوتر و لكنه ليس زهدا فى الجديد و لا استنكارا له و لكن قوة الإستيعاب و سرعة الاختزال و سعة التخزين قد تصبح على حساب الذاكرة طويلة المدى و التى يجيدون استرجاعها و الإستمتاع بها و بتفاصيلها التى تكون فى متناول اليد.

و بما أن الصغار لم يعايشوا تلك الفترة البعيدة و التى يجد الكبار لذة خاصة فى الحديث عنها تكون أقرب الى الأساطير من مخيلة الصغار مما يجعلهم خطأ يصنفون الكبار خارج دائرة الواقع و هذه من أكبر الحواجز النفسية القائمة فى سيكلوجية ما يسمى– وهما – بصراع الأجيال... إن الفجوة التى تقع بين اهتمامات الكبار و تطلعات الصغار كما و صفتها هى نتيجة طبيعية لقاعدة "فرض النضج والإنتكاس" فى علم نفس النمو و قد كتبت عنها و "فسيولوجيا الذاكرة" فى كتاب: "مدخل الى الطب النفسى"، الطبعة الاولى– دار الثقافة– بيروت 1986– ص 153 اختصارا للإطالة فى هذا الموضوع... واستصحابا لهذا النهج فإن عملية النمو الذهنى الطبيعية تقتضى أن نتلمس الطريق السليم فى التأصيل لهذه المفاهيم و التى إن وجدت طريقها الى الوجدان يصعب كبحها من اللسان.

فليست هناك قواعد علمية ثابتة لوجود صراع فكرى بدليل أن فئة الصغار والتى تستمتع بذاكرة جيدة ورصيد ثقافى و نضج فكرى (الوعى المبكر) والقلة من الكبار التى تتمتع بذاكرة متوقدة وتمتلك نعمة "روح المعاصرة" يتجاوبون فى أغلب المواقف ويتفاعلون فى كثير من المواقف فى صورة "الحوار و الفكى" و هم يمثلون صمام الأمان فى هذه المعارك الحقيقية و المفتعلة ..حول صراع الأجيال و يتساءلون عن السر العظيم الذى هم فيه مختلفون.

عود على بدء... فإذا صح ان التاريخ هو مخزون السيرة الذاتية فى ذاكرة الاجيال فانه رسالة و لابد لكى تصل هذه الرسالة ان يجاهد حاملها و يسلمها كالشعلة الأولمبية من الجيل السابق الى الجيل اللاحق ولن يتم كل

PDF processed with CutePDF evaluation edition www.CutePDF.com

هذا الأمن خلال التزام الأول بالأمانة فى حمل الرسالة و الزام الثانى بالصدق فى قراءة محتواها و نشر مضمونها و بعث الحركة فيه بما يساير روح عصره و يؤثر فى أبناء جيله.

وإننى على ثقة من أن الكثيرين من العاملين فى مجال الصحة النفسية والتربويين الذين يعيشون تجربة التواصل بين الأجيال يعلمون أن المحور الأساسى فى ترسيخ هذا السلوك الإنسانى المتحضر لا يتم فى فراغ و لن يكتمل الأمن خلال التركيز على قاعدة "ألا ننقطع عن الوصل و لا ننبت عن الاصل" و يدركون دور الذاكرة فى تنشيط الوعى بضرورة مقاومة هذا المفهموم الخاطئ والذى يؤسس لخلق حالة نفسية غير سوية تورث الأجيال روح الشقاق بديلا للوفاق و تسعى للقطيعة و خطر الوقيعة بين جذور الشجرة الضاربة فى أعماق الأرض و فروعها الممتدة فى السماء.. والشجرة دائما تسقط عندما تموت الجذور و لذلك تقع السئولية على عاتق الذين يعنون برعاية و حماية الجذور من شتى الأمراض و ما أكثرها خاصة عندما تكبر الشجرة.

تذكرت كل هذا... و مازلت أسترجع الباقى فى مخيلتى... و أنا أستعيد حصاد السنين من خلال الفضائية السودانية التى تشدنا الى البعد الثالث للوطن .. لأننا نطل عليه من الخارج كالذى يشاهد المباراة من الشرفة المطلة على الإستاد و يسترجع مع أحداث المباراة مثيلاتها فى الماضى و يمر به شريط الذكريات فأحداث الماضى تثير فينا الشجن القديم و مرآيا الحاضر نرى فيها وجه المعاصرة التى يجب أن نتفاعل معها وننفعل بها حتى نؤثر فيها و نتأثر بها و نؤكد ضرورة تواصل الأجيال .

و فى إحدى الأمسيات شاهدت فى برنامج (نصف القمر) سهرة ممتعة مع الصديق الكبير الإعلامى المشهور البروفسير على شمو و هو من النماذج الفريدة التى تحمل أبعادا انسانية متعددة يصعب الإحاطة بها فى بضعة جمل فى هذا المقام و لعل أبرز ما يطرح هذا النموذج الحوار الذى دار بينه و جيل الشباب فى الأستوديو والذى كان يقرأ فى سطور حياته بعض الصفحات من السيرة الذاتية لتاريخ الإعلام السودانى كله وكان هذا نموذجا حيا لتواصل الأجيال و كان تجربة عملية لكيفية الإنتقال التلقائى للمعرفة من جيل الى آخر فى صدق و عفوية من خلال وسا ئط إعلامية تم توظيفها بمهاره فى حمل الشعلة من جيل الى اخر.و كانت فرصة ذهبية لنقل معلومات فيها من المصداقية والشفافية أضعاف ما فى بطون كتب التاريخ والتى تتحدث عن دخول التلفزيون الى السودان فى عام 1962.

و ما كان يمكن أن تقنع كل العالم بهذه الحقيقة التاريخية إلا من خلال الحوار مع الذين صنعوا التجربة وعاشوا و على الهواء مباشرة.

و فى أمسية اخرى شاهدت حلقة فى الفضائية السودانية حول "العاصمة الثقافية" شاركت فيها الأستاذة آمال عباس الأديبة والكاتبة الصحفية فى مجلة (صوت المرأة) فى الستينات، و قد كانت إحدى دعامات العمل الوطنى فى الحقل النسائى فى فترة حبلى بصناعة أمجاد المراة السودانية حين كانت الأستاذة فاطمه أحمد ابراهيم رئيسة تحرير المجلة أول نائبة برلمانية تدخل قبة البرلمان عن صناديق الإقتراع قبل أربعين عاما خلت و كانت الأستاذة آمال الذراع الأيمن الذى تتوكأ عليه رئيسة التحرير فى زيارتها المتعددة إلى مراكز الإستجواب فى زمان كان فيه دخول المرأة للسجن فى فقه التحريم حيث كان وقفا على الرجال و لا أعرف ان كان قد أصبح الآن من حقوق المرأة الجديدة التى تتباكى عليها المنتديات من أجل المساواة مع الرجل و قد كتبت عن هذا فى مجلة (صوت المرأة) فى عام 1963.

أقول ان هذه الصفوة الباقية من النساء و الرجال هم بعض نماذج الصور المتحركة لتاريخ الأمة. فلا ندعهم يذهبون دون أن نستقطبهم و نستكتبهم و نوثق لهم فى كل الوسائط التقنية لأن أجمل ما فى التاريخ ما كتبه الثقاة وأصدق ما فيه ما حكاه الرواة و هم أحياء عند ربهم يرزقون ... يدلون بشهادتهم على العصر القديم للجيل الجديد .. بالصوت و الصورة والحركة والسكون وعلى الهواء مباشرة و لسان حالنا يقول:

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد و اللعب

و علينا ألا نظلم أنفسنا حين ندير ظهورنا إليهم و هم بين ظهرأنيننا ثم نتباكى عليهم عندما يرحلون عنا وهم يدعون علينا و لسان حالهم يقول:

و ظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهن

و سوف يدمى قلوبنا تأنيب الضمير عندما نرى التاريخ لعبة فى يد الساسة يمارسونها مع صناع القرار و هواة العمل فى مراكز الدراسات الإستراتيجية مجهولة الهوية و المنبثة فى جميع أنحاء عالم اليوم لأن الشاهد الوحيد و الرائد الذى لا يكذب أهله قد رحل عن الحياة و ترك الحقيقة فى يد كتاب التاريخ بعيدة عن ذاكرة الأجيال.

و لنا عودة ..بإذن الله

دكتور الزين عباس عماره – أبوظبى